محاضرات مادة: نظرية العلاقات الدولية

السنة الثانية ليسانس – علوم سياسية

الأستاذ: *عبد الغاني دندان*

المحور الثاني: المحاضرة: 2

النظرية الواقعية في العلاقات الدولية 1

من المؤكد أن المقاربة الواقعية قد سيطرت بشكل أو بآخر على كل من الفكر الأكاديمي للعلاقات الدولية وعلى تصورات صانعي السياسة، على الأقل في مرحلة ما. فقد اعتبرت النظرية السائدة [1] في حقل العلاقات الدولية، لمنحها أقوى تفسير لحالة الحرب التي مثلت الظرف الحتمي والدائم للحياة الدولية. [2] كما أن من أكبر العوامل الداعمة لهيمنة النظرية الواقعية هو أنها تصور العالم الذي نفهمه بالفطرة. [3]

1. المسلمات الرئيسة للنظرية الواقعية:

تاريخيا، تم النظر إلى الواقعية على أنها الطريقة التي يتم وفقها النظر إلى العلاقات الدولية كعلاقات قوة؛ فقد بلغت الواقعية أوج جاذبيتها كنظرية أو كمجموعة مقترحات حول الفرد والدولة والنظام الدولي فيما بعد عام 1940،أي تقريبا مع نشر" هانز مورجنتو"Hans Morgenthau كتابه الموسوم بـPower Among Nations لإيضاح نظريته للعلاقات الدولية، التي صاغها لشرح الماضي والأحداث الراهنة في عصره واقتراح الاتجاه المحتمل وشكل العلاقات المستقبلية .فبحسب "جيمس روزنو" James N. Rosenau و"ماري ديرفي" Mary Durfee تأمل الواقعية

> "[...] شرح لماذا تعدل الدول سلوكياتها؟ وبما أن الدول تنخرط في عدد من السلوكيات بانتظام، فعلى أي شيء يستند هذا الانتظام؟ ماهي

> حسابات الحرب والسلام؟ لماذا تبقى دول وتزول أخرى؟ هذه هي الأسئلة المركزية للنظرية الواقعية."[4]

ويتفق دارسوا العلاقات الدولية إجمالا على أن الواقعية لا تقدم نظرية معيارية لأنها تهتم بما هو كائن في مجال العلاقات الدولية. فوصفها بأنها

> "في جوهرها محافظة وتهتم بدراسة الواقع وحذرة وتشك في المبادئ المثالية وتهتم بدروس التاريخ وغالبا ما تنظر إلى السياسة الدولية بتشاؤم وليس بتفاؤل لا يدل على فشلها بقدر ما هو تقرير لحالتها."[5]

ويمكن تحديد الافتراضات الأساسية للمدرسة الواقعية في النقاط التالية:

- الدولة هي الفاعل الرئيس والأهم في العلاقات الدولية؛ فهي الوحدة الأساسية للتحليل. ودراسة العلاقات الدولية هي دراسة العلاقات بين هذه الوحدات؛
- الدولة كفاعل دولي وحدة واحدة لا تتجزأ؛ فهم ينظرون إليها كفاعل وحدوي Unitary Actor لها سياسة واحدة في أي زمان وفي أي مسألة كانت؛
- الدولة فاعل راشد بالأساس؛ أي أن الدول فواعل عقلانيون يسعون لتعظيم الفوائد وتقليص التكاليف المتلازمة مع سعيها لتحقيق أهدافها؛
- ضمن سلم ترتيب المسائل الدولية، يحتل الأمن الوطني قمة أولويات القضايا الدولية. فالواقعيون عادة ما ينظرون إلى القضايا العسكرية والأمنية والاستراتيجية باعتبارها قضايا السياسة العليا Hight Politics في حين يصنفون القضايا الاقتصادية والاجتماعية ضمن مسائل السياسة الدنيا Low Politics نظرا لأهميتها الثانوية.

ومن المهم أن نشير إلى أنه ليس هناك إجماع في الأدبيات الواقعية عما إذا كان في وسعنا الحديث عن نظرية واحدة متماسكة للواقعية، [6] إلا أن الواقعيين جميعهم يتفقون على منطلق مشترك، وهو أن مجال السلوك بين الدول كاف بحد ذاته من أجل وضع تفسير له.

غير أن "تيموثي دن" Timothy Dunne قام بمحاولة لصياغة قالب جوهري مشترك من الأسس التي يقرها جميع الواقعيين كواقعية مركبة، أو ما أسماها "الواقعية الأساسية" The Essential Realism

والتي تشكل بـ"سيناتها الثلاث"Three Ss [الدولاتية/Statism، البقاء/Survival، العون الذاتي/ Self help] زوايا المثلث الواقعي؛

فالدولاتية هي صلب النظرية الواقعية. واعتبارها للدولة الفاعل الرئيس، ومذهب نظام الدول هو المصطلح الذي يطلق على فكرة الدولة كممثل شرعي للإرادة الجماعية للشعب ينطوي على زعمين: ألهما أن الدولة بالنسبة إلى المنظر هي العنصر الفاعل الأبرز، وأن العناصر الفاعلة الأخرى في السياسة العالمية ذات أهمية أقل. وثانيهما أن "سيادة" الدولة تشير إلى وجود مجتمع سياسي مستقل يتمتع بالسلطة القانونية فوق أراضيه. كما أن الأولوية القصوى لزعماء الدولة هي ضمان بقاء دولتهم. فالاهتمام الأقصى للدول ينحصر في الأمن. فبعد دافع البقاء كما يرى"والتز" Waltz قد تتنوع أهداف الدول بأشكال لا نهاية لها.

بالإضافة إلى أن العون الذاتي أو الاعتماد على النفس هو مبدأ العمل ضمن ظروف نظام فوضوي، أين يتحقق التعايش من خلال الحفاظ على توازن القوى. [7]

2. ابستمولوجيا النظرية الواقعية:

إن المقاربة الواقعية تندرج ضمن النوع الأول في تصنيف "كوكس"Cox [8]. وعليه فمنظرو هذه المقاربة يأخذون العالم كما هو موجود "حقيقة"؛ فكما أوضح "هانز مورجانتو" Hans Morgenthau فإن

> "الواقعية هي نظرية تحاول فهم السياسة الدولية كما هي موجودة فعلا it actually is ،والنظر إليها في طبيعتها الأصيلة أو الجوهرية. " [9]

وعليه فالمبدأ الأول الذي يقرره "مورجانتو"Morgenthau هو أن السياسة محكومة بقواعد موضوعية تجد أصولها في الطبيعة الإنسانية ذاتها.

وفق هذا التصور، لا تستفهم نظرية حل المشكلة حول "الوحدات الأنطولوجية"[كالدولة والنظام الدولي الفوضوي وغيرها]، لأن كلا منها حقيقة طبيعية وثابتة و"لا تاريخية" Ahistorique

ومُشاهَدة امبريقيا. ويكون هذا الإستفهام غير ذي معنى، لأن هذه الوحدات تندرج ضمن الإبستيمولوجيا الوضعية المستمدة من العلوم الطبيعية

> "[...] التي تشدد على العلم والمنهج العلمي بصفتهما مصدر المعرفة الوحيد، كما أنها تميز تمييزا قاطعا بين عالم الحقائق والقيم[...] . ويرى مؤيدوا هذه الحركة الفلسفية أن للمعرفة مصدرين لا غير: العقلانية المنطقية والإختبار التجريبي؛ فيثبت تصريح معين جدواه إذا تبرهنت صحته وخطأه لا غير على الأقل في المبدأ أو من خلال الاختبار."[10]

وفقا لوجهة النظر تلك، يكون "المُنَظِّرُ" ملاحِظًا خارجيا يبحث عن شرح للظواهر وكشف الأنماط المنتظمة في السلوك الإنساني. وبذلك يحاول الواقعيون رفع مستوى تحليل الظواهر في العلاقات الدولية إلى مصاف الظواهر الطبيعية، أين يفسَّر العالَم الاجتماعي كما يفسِّر عالِمُ الطبيعة العالَم الفيزيائي. وبهذا المعنى تكون الواقعية جزءا من "النظريات التفسيرية" les Théories Explicatives

> "التي تنظر إلى العالم بوصفه شيئا خارجا عن نظرياتنا عنه[...] وأن النظريات التي نستعملها لتحليله هي مجرد نظريات تصف الحوادث بدلا من أن تبني تلك الحقيقة."[11]

على غرار الأدبيات الفكرية التفسيرية في علوم الطبيعة، ينشغل الواقعيون بتتبع "التراكم المعرفي" الذي يمكِّن من "استنباط" قوانين علمية وعامة ولا تاريخية تشرح العلاقات الدولية. ولبلوغ هذا التراكم المعرفي على دراسات العلاقات الدولية والأمن التقيد بمبادئ البحث العلمي التي هي بحسب "ستيفن والت"Stephen M. Walt

> "الاستخدام الدقيق للمصطلحات والمقاييس الصحيحة للمفاهيم النقدية والتوثيق العام للإدعاءات النظرية والإمبريقية." [12]

إن اهتمام المنظرين العقلانيين بالتتبع المستمر للتراكم المعرفي جد هام. لأن نظرة العلاقة بين التاريخ والمعرفة -بحسب المناهج التاريخية/الإستقرائية والتاريخية/الاستنباطية -جد قوية.

كما أن من يستند إلى هذه "المعرفة المتراكمة" يعتبر نظرته تمثل أوج "لمسار العلمي الخطي"processus scientifique linéaire .

على اعتبار أن لهم السـلطة في حقل العلاقات الدولية، يدعي منظروا المنظار العقلاني الحق في الحكم على مختلف الإفتراضات النظرية البديلة. وهم يبررون وضعهم السلطوي هذا بدعوى أن تحليلهم للعلاقات الدولية، قد أُسِّس على المبادئ الآكدة والصحيحة في حقل العلوم الطبيعية التي تعرض الواقع وتشرحه بـ "موضوعية". على عكس المقاربات البديلة التي-برأيهم-ليست إلا صدى لتقلبات الرأي العام والتصورات الذاتية. ويجد هذا الإدعاء جذوره في القدرة على تقديم الواقع بموضوعية كما أوضح ذلك كل من "ميكائيل ويليامز"Michael C. Williamsو "كايث كروز" Keith Krause

> "فالواقعية الجديدة أو الليبرالية الجديدة لا تحصر ببساطة معرفتها بطبيعة العلاقات الدولية، بل تتعداه إلى ادعاء المعرفة. بالتحديد: الإدعاء العلمي بمعرفة حقيقة العلاقات الدولية بموضوعية."[13]

وعليه، فهم لا يبحثون فهم وتغيير الوحدات الأنطولوجية للواقعية، لأنها طبيعية وثابتة ولا تاريخية، بل يعملون على إيجاد قوانين عامة (علمية) تُمكِّن من حل الإضطرابات والنزاعات، لأجل ضمان وحفظ إستقرار النظام الدولي.[14] فمفاهيم الإستقرار stabilité وبقاء الدولة la survie étatique توجد في مركز أجندة بحث منظري الواقعية، وفي مركز اهتمامات "للدولة العقلانية"[15] لأن الدول توجد في نظام فوضوي بطبيعته.

3. الأنطولوجيا المادية:

إن عالم الميتامنظار العقلاني هو عالم محسوس ومادي. بمعنى أن الواقع أو ال حقيقة réalité مكونة من أجسام ملموسة وواضحة ومدركة بالحواس؛ فالوحدات الأنطولوجية في الميتامنظار العقلاني كالدولة والنظام الدولي يتم تصورها وإدراكها على أنها أشياء مستقلة، لها ديناميكيتها الخاصة وتتطور تحت تأثير الفواعل الإنسانية. وبهذا المعنى فأنطولوجيا الواقعية مادية.

كما أن تمَثُّلَ "فوضوية النظام الدولي" قد أوجد نوعا من الفصل الجذري بين الدول. وبهذا يكون النظام الدولي أشبه بـ "لعبـة البلياردو" أين تكون الكرات (الدول) مستقلة الواحدة عن الأخرى، وتتصادم في فضاء محدود. وعليه، فالدولة العقلانية والمستقلة تشكل الوحدة الأنطولوجية المركزية داخل الميتامنظار العقلاني [16].

بوصفها الفاعل الرئيسي في العلاقات الدولية، فإن سعي الدولة للحفاظ على بقائها في بيئة عدائية لا يتأتى إلا بحيازة القوة التي هي الهدف المناسب والعقلاني والحتمي للسياسة الخارجية. كما أن استعمال صيغة الجمع للدولة [states] أي إضافة[s] باللغة الانجليزية، لا يفيد الجمع فحسب، بل ينطوي على عبور حد مفاهيمي. فالدول غير مسؤولة إزاء سلطة أعلى، ولذا فإن عليها أن تعتمد على نفسها Self Help بغية حماية مصالحها وتأمين استمرار بقائها.

> " فالواقعية عالم تكون فيه السياسـة الدولية دائمة الاتصاف بالصـراع الفعلي أو المحتمـل بين الدول[...] ولا شيء غير الاستخدام البـارع للقوة أو التهديد باستخدامها، يتيح للدولة فرصة النجاة. ويبقى استقرار النظام رهنًا باستمرار نجاح السَّاسة في التوفيق بين مصالحهم، كما في حالة التوازن الناجح للقوة."[17]

كما تعمد الواقعية إلى تجزئة وفصل مختلف الفضاءات المكونة للدولة عن بعضها البعض. والفصل الأكثر أهمية هو الذي أُنشأ بين السياسة الداخلية والسياسة الخارجية؛ فالفضاء الداخلي يضم الحالة المدنية، أين يخضع الأفراد لــ "امبراطورية القانون"[18] بينما يشكل الفضاء الخارجي "حالة الطبيعة"[أو الفوضى] بين الدول، أين تكون الحروب محتملة.

4. اللاتاريخية: L'Ahistorique

يستخدم مصطلح "اللاتاريخية" Ahistorique في النظرية الواقعية للدلالة على ميل المنظرين الواقعيين ونزوعهم إلى بناء قوانين صحيحة وعامة، صالحة لأن تطبق على مر الزمان والمكان؛ أي غير خاضعة للتاريخ.

فدراسة الواقعيين للعلاقات الدولية تتم داخل إطار مرجعي محدد بدقة في الزمان والمكان. وبالتالي فهم يستخدمون المنهج التاريخي الاستقرائي-النظر في أحداث النظام الدولي لفترات معتبرة- لاستخلاص فروض عامة أو "مفاهيم فوق تاريخية"Des concepts supra historique ومحاولة برهنة صلاحيتها باستخدام المنهج التاريخي-الاستنباطي. أي مقابلة تلك المفاهيم بالوقائع التاريخية المعاصرة.[19]

من منطلق هذه القوانين التي عادة ما يتم وصفها بالعامة واللاتاريخية، يؤكد الواقعيون على أن العالم يمكن شرحه بطريقة دورية cyclique.كما يؤكدون على أن المستقبل لن يكون مختلفا عن الماضي، وأن النظام الدولي كان وسيبقى دائما فوضويا؛

> "[فـ]الدول تتنافس لأجل الرفاه والأمن، والمنافسة كثيرا ما تقود إلى الصراع، فلماذا إذًا يجب أن يكون المستقبل مختلفا عن الماضي."[20]

لكن هذا الميل إلى استنباط هكذا قوانين يغفل جانبا مهما من الديناميكية المعقدة للتاريخ.

*** ـــــ ***

الهوامش:

1 يبرز تحليل إحصائي لأدبيات العلاقات الدولية في خمسينيات وستينيات القرن العشرين هيمنة النموذج الواقعي على ما سواه، من حيث الاعتماد الكاسح على الافتراضات الجوهرية للواقعية. وتفيد نتائج التحليل بأن أكثر من 90% من الفرضيات الواقعية التي بلغت سبعة آلاف فرضية قد زيفت. (John Vasques ,1979).

2 تيموثي دن، "الواقعية،" في عولمة السياسة العالمية، مرجع سابق، ص.227.

3 ستيف سميث، مرجع سابق، ص.351.

4 James S. Rosenau, Mary Durfee, Thinking Theory Thoroughly: Coherent Approaches to an Incoherent World, 2nd ed. (Colorado: West View press, 2000), p.11.

5 أحمد علي سالم، "القوة والثقافة وعالم ما بعد الحرب الباردة: هل باتت المدرسة الواقعية في العلاقات الدولية شيئا من الماضي؟،"المجلة العربية للعلوم السياسية 20 (خريف 2008): ص.119.

6 لقد تفرق الواقعيون إلى فرق كثيرة، فظهرت وانتشرت أطروحات وشعارات واقعية جديدة يذكرها 'Snider' على النحو التالي:" هناك الآن في حقل العلاقات الدولية نظريتان على الأقل تصف كل منهما نفسها بأنها 'واقعية بنيوية'، وهناك نحو ثلاثة أنواع من' الواقعية الهجومية ' وعدة أشكال من ' الواقعية الدفاعية '.بالإضافة إلى نظريات واقعية ' تقليدية حديثة 'و'مشروطة' و'خاصة' و'معممة'" وفي مخطط تفصيلي للمذاهب الواقعية يميز' Timothy Dunne 'بين أربعة أنواع من الواقعية؛ فبينما تركز الواقعية البنيوية الأولى على محورية

الطبيعة البشرية في الصراع في السياسة الدولية[ثوسيديدس/مورجانثو]، تقر الواقعية التاريخية أو العملية بأن المبادئ تخضع للسياسات [ماكيافيلي/إدوارد هالت كار].في حين ترى الواقعية البنيوية الثانية أن الطبيعة الفوضوية للنظام الدولي هي المسؤولة عن الصراع وانعدام الأمن في السياسة الدولية [روسو/والتز]،بينما تجادل الواقعية الليبرالية بإمكانية امتصاص هذه الفوضى من قبل الدول، وقدرة الدول على التعايش مع كيانات أخرى ذات سيادة. عندها ينقلب النظام الفوضوي إلى مجتمع فوضوي [هوبز/هيدلي بل]. أنظر: تيموثي دن، "الواقعية،" مرجع سابق، ص ص.234-237.

7 تيموثي دن، مرجع سابق، ص ص.228-250.

8 بحسب 'Robert W.Cox' فالواقعية نظرية لحل المشكلات؛ فهي تتقبل النظام السائد وتسعى إلى عزل بعض جوانب النظام لا لهدف سوى معرفة آلية عمله. راجع الصفحة رقم: [21-22]

9 Mark Busser, "The evolution of security: Revisiting the human nature debate in international relations," YCISS working paper, 40 (august 2006), p.2.available at: http://www.yorku.ca/yciss/publications/documents/WP40-Busser.pdf.

10 مارتن غريفيثس وتيري أوكالاهان، مادة(الوضعية/مابعد الوضعية)،مرجع سابق، ص ص.455-457.

11 ستيف سميث، مرجع سابق،ص.354.

12 Stephen M. Walt, Op.cit, p.222.

13 Keith Krause and Michael C. Williams, "From strategy to security: foundations of critical security studies" in Critical Security Studies: Concepts and Cases, Op.cit., p.37.

14 بالمعنى الواقعي، الإستقرار يعني الوضع القائمStatu Quo للنظام الدولي، أي غياب أي إرادة تثير اضطراب هذا النظام.

15 العقلانية Rationality على رأي'George Tsebelis' ليست'أكثر من التوافق الأمثل بين الوسائل والغايات'.

16 بجعلها الدول أهم من أي وحدة أنطولوجية أخرى، فالواقعية على رأي' Rosenau' تقوم بتبسيط العالم Simplifies the world

17 جوزيف س.ناي و روبرت و.كيوهان، "القوة والاعتماد المتبادل المركب،" في العولمة: الإنقاذ أم الطوفان، تص. فرانك ج.لتشنر وجون بولي، تر. فاضل جتكر (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،2004)،ص.418.

18 استخدمت هذه العبارة من لدن الكاتب الفرنسي' Raymond Aron' في كتابه الشهير' Paix et Guerre'

19 Raymond Aron, leçon sur l'histoire : cours des collèges de France (paris : édition de falaise, 1989), p.445.

20 Kenneth Waltz," The emerging structure of international politics," International Security 2 (automne 1993): p.64.